المبحث التاسع
غزوة أُحُد بين النصر والهزيمة

١ ـ أنصر أم اندحار؟:

يقول ل/ خطاب: «لقد أجمع المؤرخون على اعتبار نتيجة (أُحد) نصرًا للمشركين على المسلمين.

ولكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه المؤرخون.

ولذا لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة (أُحد) نصرًا للمشركين واندحارًا للمسلمين؛ لأن مناقشة المعركة عسكريًّا، تُظهر انتصار المسلمين على الرغم من خسائرهم الفادحة في هذه المعركة.

ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة، لإظهار حقيقة نتائج (أُحد).

لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم والإحاطة بنسائهم وأموالهم وتعفير لوائهم بالتراب، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين وهجوم المشركين من الأمام، جعل قوات المشركين تُطْبِق على قوات المسلمين.

هذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر، ولكن بقي النصر بجانبهم إلى الأخير.

ذلك لأن نتيجة كل معركة لا تُقاس من الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط، بل تُقاس بالحصول على هدف القتال الحيوي، وهو القضاء المبرم على العدو ماديًّا ومعنويًّا.

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين ماديًّا ومعنويًّا؟

إن حركة خالد بن الوليد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك، وقيام المشركين بالهجوم المضاد وإطباقهم على قوات المسلمين وهم متفوقون بالعدد بنسبة خمسة أمثال المسلمين، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كل قوات المسلمين، ولا يمكن أن يُعد التفاف قوة متفوقة فواقًا ساحقًا على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة بالمائة فقط من موجودها، إلا انتصارًا لتلك القوة الصغيرة بدون أدنى شك.

ولا يمكن اعتبار إخفاق القوة الكبيرة في القضاء على الصغيرة ماديًّا ومعنويًّا في مثل ذلك الموقف الحرج للغاية، نصرًا لتلك القوة الكبيرة على القوة الصغيرة.

لقد كان بإمكان المشركين القضاء على قوات المسلمين في معركة (أُحد)، بعد أن استطاعوا إحاطتهم من كل الجوانب بقوات متفوقة عليهم فواقًا ساحقًا.

ومع ذلك استطاع محمد ﷺ أن يشق طريقه بين القوات المحيطة به، ويخلِّص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد.

إنَّ فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوقة يعتبر إخفاقًا لهم.

وإن نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين بخسائر نسبتها عشرة بالمائة من قواتهم القليلة يعتبر نصرًا لهم.

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضًا وإلا لما استطاع المسلمون الخروج من المدينة لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم (أُحد)، دون أن تجرأ قريش على لقاء المسلمين بعيدًا عن المدينة، خاصة وأن الرسول ﷺ خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت (فعلًا) بمعركة (أُحد)، دون أن يستعين بغيرهم من الناس.

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذي كانوا فيه (بأُحد)، نصر عظيم لهم؛ لأن أول نتائج إطباق المشركين عليهم من كل الجهات كان الفناء التام.

ثم إن معركة (أُحد) أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين صفوفهم بصورة لا تقبل الشك والمماراة، وهذا مكسب عظيم لا يُقدَّر بثمن ولا تُعدُّ خسائرهم بالأرواح إلى جانبه شيئًا مذكورًا.

فقد نجحوا في معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام في صفوفهم بعد (أُحد) على هدى وبصيرة.

وبذلك تظهر الفائدة العظيمة لغزوة (أُحد) للمسلمين.

إنَّ نتيجة معركة (أُحد) نصر (تعبوي) للمشركين على المسلمين، ولكنها فشل (سَوقي) للمشركين.

ولا يُعد النصر التعبوي شيئًا يُذكر إلى جانب الفشل السوقي [1]، وصدق الله العظيم: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ١٨٦-١٨٧، ١٩٢-١٩٣**].

---

(١) **التعبية**: الأعمال العسكرية في المعركة، أو هي الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير معركة واحدة.

والسوق: هو الاستفادة من المعارك للحصول على الغرض من الحرب، أو هو الأعمال العسكرية التي تؤثر على سير الحرب كلها.

ذلك هو تعريف السوق والتعبية بصورة موجزة للغاية تعطي (فكرة) للمدنيين فقط، إذ إن لكل من هذين الاصطلاحين تعريفات كثيرة طويلة تستغرق كثيرًا من كتب فن الحرب، ومن ذلك يتضح أن السوق يعني نتائج الحرب كلها، بينما التعبية تعني نتائج معركة واحدة محلية.

٢ـ لمن كان النصر في أُحد؟ هل كان للمسلمين أم كان لقريش؟:

ويقول ل/ فرج: «سؤال يقفز إلى الأذهان ويفرض نفسه في هذا المكان.

والإجابة على هذا التساؤل تستوجب دراسة أحداث المعركة وتطوراتها من وجهة النظر العسكرية، ولا بد لهذه الدراسة من أن تقوم على أسس الفن العسكري دون تعصب أو ميل مع الهوى.

إن كثيرًا من المؤرخين قد اتفقوا على أن غزوة أُحد كانت نصرًا للمشركين وهزيمة للمسلمين، ولعلهم قد انتهوا إلى هذا الرأي بعد أن تابعوا أحداث المعركة من حيث هي أحداث بدأت بانتصار أوَّلي للمسلمين ثم انتهت بكرَّة لقريش أوقعت الخسائر العديدة بصفوف المسلمين، ولعلهم لم ينظروا في متابعتهم للأحداث نظرة رجل الحرب التي يمكن أن تُقَيِّم نتيجةَ المعركة بغير ما اتفقوا عليه؛ ذلك أن نتيجة أية معركة عسكرية لا تُقاس بحجم الخسائر في الأرواح وإنما تقاس بمدى تحقيق الهدف.

كانت خطة قريش في القتال تقوم على ثلاثة أمور هي [(١)]:

١ـ تحقيق المفاجأة ومباغتة المسلمين في مواقعهم.

٢ ـ التخذيل والتفريق بين صفوف المسلمين.

٣ـ قتل الرسول ﷺ والفتك بكبار أصحابه.

وخاضت قريش غمار المعركة مستهدفة تحقيق هذه الأهداف، فإذا كانت هذه الأهداف قد تحققت تكون قريش قد انتصرت في المعركة، وإذا لم يثبت تحقيقها تكون قد خسرت المعركة.

أما عن المفاجأة فقد انكشف أمر الجيش وعلم به رسول الله ﷺ، وعلم به عن طريق الرسالة التي بعثها له العباس ﷺ، والعيون التي بعثها الرسول ﷺ للاستطلاع.

واتخذ على الفور الإجراءات التي يواجه بها جيش عدوه... وبذلك تكون المفاجأة قد تلاشت في تفكير قريش نهائيًا، حتى إن أبا سفيان قال: «**أَحْلِفُ بِاللهِ أَنَّهُمْ جَاؤُوا مُحَمَّدًا فَخَبَّرُوهُ بِمَسِيرِنَا، وَحَذَّرُوهُ وَأَخْبَرُوهُ بِعَدَدِنَا فَهُمْ الآنَ يَلزَمُونَ صَيَاصِيَهُمْ، فَمَا أَرَانَا نُصِيبُ مِنْهُمْ شَيْئًا فِي وَجْهِنَا**».

[المغازي للواقدي١/ ٢٠٥].

وهذا اعتراف صريح من قائد قريش بأن دعامة من دعامات خطته قد تهاوت.

وأما عن التخذيل والتفريق بين صفوف المسلمين فقد فشل أيضًا ولم تنجح قريش في إيجاد تفكك أو تخاذل في جيش محمد ﷺ، حيث حاول أبو سفيان أن يُوجد في بداية القتال شرخًا وتصدعًا في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار وعرض عليهم أن يتخلوا عن الرسول ﷺ حتى ينصرف هو ورجاله فقال: «**خلوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتالكم**»، فردوا عليه بما يكره.

---

(١) قد أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن خطة المعركة.

ولقد كانوا يأملون في أن يكون لأبي عامر الأوسي تأثير على أهله من أوس المدينة فيستمعوا إلى نصحه ويخرجوا من صفوف المسلمين إلى صفوفهم، قال لهم أبو عامر: «**إِنِّي لَوْ قَدِمْتُ عَلَى قَوْمِي لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ رَجُلانِ**»، فماذا فعل أبو عامر؟!

وهل كان لوجوده أدنى أثر بالنسبة للأوس؟، لقد قرب من أصحاب محمد ﷺ ودعا قومه قائلًا لهم: «**يَا آلَ أَوْسٍ أَنَا أَبُو عَامِرٍ إِلَيَّ إِلَيَّ**»، فما كان جوابهم إلا اللعن والطرد إذ أجابوه: «**لا أَنْعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ**».

وإذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ قد انشق بقومه عن المسلمين، فإن انسحابه لم يكن لقريش دخل فيه، وإنما هو رجل منافق، وكان الرسول ﷺ والمسلمون يعرفون فيه ذلك حتى أنهم سموه رأس المنافقين وإمامهم، ولم يكن ورجاله موضع ثقة المسلمين، ولم يكن أحد من رجال رسول الله ﷺ يطمئن إليه، وبالتالي فلم يكن أحد من المسلمين يرحب به كجندي في معركة تتطلب إيمانًا عميقًا وعقيدة راسخة ورغبة أكيدة في نصر دين الله والاستشهاد في سبيله، من الواضح أن انسحابه كان له تأثير على نفسية المقاتلين، ولكنه كان تأثيرًا مؤقتًا؛ ذلك أن الله عصم المؤمنين بإيمانهم وأذهب عنهم الخوف وملأ قلوبهم سكينة، فعادوا إلى حالتهم التي كانوا عليها، إيمان قوي راسخ كالرواسي وحب في الشهادة وإرادة ما عند الله، هذا فوق أن رسول الله ﷺ لم يكن يهتم بالكثرة العددية اعتمادًا على روح رجاله وكفاءتهم القتالية التي كانت اليد القوية التي تبطش والسيف البتار الذي يقتل، ودليل ذلك أنه ﷺ ردَّ كتيبة كبيرة من يهود قائلًا: «**إِنَّا لا نَسْتَعِينُ بِأَهْلِ الشِّرْكِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ**»، ولعل في قول عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ لعبد الله بن أُبي وصحبه: «**سَيُغْنِي اللهُ تَعَالَى عَنْكُمْ نَبِيَّهُ**» تأكيدًا إلى أن المسلمين كانوا يثقون في نصر الله، وإلى أنهم لم يتأثروا أصلًا بخروج هؤلاء.

إذن فقريش لم تستطع أن تحقق الأمر الثاني من خطتها، فإذا ما تابعنا أحداث المعركة وسيرها لوجدنا أن قريشًا في مرحلة القتال الأولى خسرت خيرة شبابها وكلهم كانوا حملة الراية، تناولوها الواحد بعد الآخر، حتى سقطت في النهاية فوق أرض المعركة تدوسها الأقدام وتطؤها النعال.

ومع بدء القتال حاولت خيل المشركين أن تحمل على المسلمين يقودها رجلان من أقوى الرجال وأكثرهم حنكة ودراية، وهما خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فهاجمت مواقع المسلمين ثلاث مرات ولم تنل منهم شيئًا، بل كانت الهجمات تُرد سريعًا أمام سيل لا ينقطع من نَبْل المسلمين.

لقد أمعن المسلمون في الناس وهدوهم ونهكوهم، فها هو ذا أبو دجانة ﷺ يضرب في الناس بسيف رسول الله ﷺ ويأخذ له بحقه فلا يجد أحدًا إلا قتله، ولم يزل يضرب بالسيف حتى انحنى وصار كأنه

منجل، وها هو ذا حمزة ﷺ يقاتل قتالًا شديدًا حتى أنه قَتَل في مرحلة القتال الأولى عددًا كبيرًا من رجال قريش.

لقد انهزم المشركون وولَّوا الأدبار، والنسوة اللاتي خرجن يحرضن على القتال أسرعن بالفرار وهن كاشفات سيقانهن رافعات ثيابهن يصرخن ويولولن.

إن الرأي المنصف يؤكد أن مرحلة القتال الأولى كانت في جانب المسلمين، هذا أمر أثبتته أحداث القتال، ولا ينكره إنسان ولا يختلف فيه اثنان.

ولما ترك الرماة مواقعهم وأدرك خالد بن الوليد أهمية الجبل وهاجم القلة التي بقيت هناك وعاد الفارون إلى أرض المعركة وقاموا بهجومهم المضاد، اجتمع أربعة منهم ليقتلوا رسول الله ﷺ، ورغم ما كان فيه المسلمون من تمزق، فإن أَحدًا لم يستطع أن يصل إلى موقعه ﷺ، ولم يستطع أحد أن يصيبه في مقتل رغم أنه لم يهرب حين تفرق أصحابه، ولم يجزع حين اشتد الهجوم عليهم، بل ظل في موقعه متماسكًا قويًّا عزيزًا يقاوم المهاجمين ويصدهم ويدعو قومه للصمود والتقارب استعدادًا لصد الهجوم والكر على أعدائهم بهجمة جديدة مضادة.

وحتى مقتل حمزة ﷺ لم يقع نتيجة بطولة قرشي واحد، وإنما تم بواسطة وحشيٍّ الذي لم يكن له دور محدد في القتال سوى قتل حمزة ﷺ، فلما حانت له الفرصة وقتله خرج من المعركة ولم يباشر فيها قتالًا قبل قتله ولا بعده، فكأنه قد خرج للاغتيال وليس للقتال، ورغم أن حمزة ﷺ قد نال الشهادة فإنه قد هدَّ الناس بسيفه قبل أن يلقى مصرعه، وكان في المعركة كالأسد الهصور، ووصف وحشيٌّ قاتلُه فعلَه في القتال بقوله: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى حَمْزَةَ يَهُدُّ بِسَيْفِهِ مَا يُلِيقُ بِهِ شَيْئًا، مِثْلَ الجَمَلِ الأَوْرَقِ**».

هذا بالنسبة للهدف الثالث من القتال، فقد فشلت قريش في قتل رسول الله ﷺ، أما أنها قد قتلت سبعين رجلًا من المسلمين، فإن هذا العدد يتضاءل أمام ما كان يجب أن يكون عليه عدد القتلى في موقف كهذا الموقف، فالمسلمون في تفكك واضطراب وتمزق حتى أن الواحد منهم كان يقتل أخاه المسلم دون أن يدري ماذا يفعل، كانوا قد زُلزلوا زلزالًا شديدًا يجعلهم صيدًا ثمينًا سهلًا لعدوهم الذي كان يملك القدرة على المواجهة والتصرف، ولقد قتلوا حمزة ﷺ ولكن بقي حيًّا عليٌّ والزبير وسعد وأبو عبيدة وأبو بكر وعمر وغيرهم من صناديد المؤمنين.

ثم هناك نقطة هامة: مَنِ الذي أنهى المعركة؟... أليس هم المشركون؟ أنهوها في وقت كان الزمام في أيديهم، وقد أحاطوا بالمسلمين من كل جانب على ما هم فيه من تفرق وفزع، وكان لديهم التفوق العددي رجالًا وسلاحًا.

لماذا إذن ـ وهم في موقف المتفوق والقادر ـ أنهوا المعركة وانسحبوا من مسرحها وعادوا إلى مكة قبل أن يتم القضاء على قوة المسلمين الصغيرة ماديًّا ومعنويًّا والتي كانت تجتاز فترة حرجة للغاية؟

إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في أن قريشًا كانت ترهب قوة المسلمين رغم قلتها، وكانت تدرك أنهم رجال المعارك وأبطال الحرب، وتكمن أيضًا في أن المسلمين ـ وهم في موضع المحنة ـ قد استطاعوا لَمَّ الشمل، وشاهد المشركون السيوف تبرق في أيديهم، والصدق يبدو في ملامحهم، والخوف قد زال عنهم، فأحسوا بأن الأمر قد يفلت، وأن الميزان قد يتحول، فآثروا إنهاء المعركة اكتفاء بما تصوروه نصرًا وما هو بنصر.

إن إرادة جند الله كانت أقوى من إرادة المشركين، فقد استمد المسلمون من محنتهم قوة وصلابة وازدادوا بها ثباتًا ومضاء، وليس أدل على ذلك من أن رسول الله ﷺ دعا بعد عودته إلى المدينة بيوم واحد للخروج، فخرج أصحابه يوم أُحد دون غيرهم إلى **حمراء الأسد** لمواجهة قوات أبي سفيان التي خرجت من مكة وقد أدركت فشلها في أُحد، لتستعيد نصرًا، فقدته عبَّر عنه بعضهم بقولهم وهم يتلاومون: «**لَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا! أَصَبْتُمْ شَوْكَةَ القَوْمِ ثُمَّ تَرَكْتُمُوهُمْ وَلَمْ تَبْتُرُوهُمْ، وَقَدْ بَقِيَتْ مِنْهُمْ رُؤُوسٌ يَجْمَعُونَ لَكُمْ، فَلا مُحَمَّدًا أَصَبْتُمْ، وَلا الكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، فَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ؟**».

اعتراف صريح بأنهم لم ينتصروا في أُحد، فلما تنبهوا إلى هذه الحقيقة عادوا أدراجهم يبغون المدينة، فيتصدى لهم واحد من رجالهم هو **صفوان بن أمية** فيحذرهم ويدعوهم إلى الرجوع ويقول لهم في وضوح: «**لَا تَفْعَلُوا فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْكُمْ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ، فَارْجِعُوا وَالدَّوْلَةُ لَكُمْ، فَإِنِّي لا آمَنُ إِنْ رَجَعْتُمْ أَنْ تَكُونَ الدَّوْلَةُ عَلَيْكُمْ**».

وعندما سمع أبو سفيان قول **معبد الخزاعي**: «**مُحَمَّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقًا**»، خاف من اللقاء وآثر العودة واكتفى من الغنيمة بالإياب.

أين إذن هو النصر الذي حققه المشركون؟

ولا نود أن يفهم أننا نرجع النصر إلى المسلمين.

حقيقة أن المسلمين لم ينهزموا ولم يفروا كما فر المشركون في بدر، ولم يولوا مدبرين، وحقيقة أيضًا أنهم لم ينتصروا على عدوهم كما انتصروا في بدر.

إننا **نرى أن غزوة أحد لم يكن فيها منتصر أو مهزوم**، فالمشركون لم يحققوا أهدافهم، وبذلك يصعب وصفهم بالمنتصرين، والمسلمون لم يستسلموا ولم يفروا، وبذلك يصعب نعتهم بالمنهزمين.

إن أُحدًا بالنسبة للمشركين كانت فرصة متاحة يحققون بها ثأرهم وينالون فيها نصرًا كبيرًا؛ تكون له آثاره الخطيرة، ولكنهم لم يستغلوا الفرصة.

وأن أُحدًا بالنسبة للمسلمين كانت جرحًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وكانت محنة أراد الله بها تمحيص المؤمنين المخلصين وكَشْفَ النقاب عن المنافقين المخادعين، وتنبيه المسلمين إلى أن الجهاد يجب أن يكون خالصًا لله وحده، وألا يكون مطمعًا في غنيمة أو طلبًا لسلب، ولقد استفاد المسلمون من هذه المحنة فعرفوا مواضع الضعف، وأدركوا ما يجب أن يتميز به المجاهدون من صدق الإيمان ورسوخ العقيدة والإخلاص لله والثبات عند اللقاء، والصبر عند النزال وعدم الانخذال عند اليأس، والصمود عندما يحمى الوطيس».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٤٤-٢٤٨].

وباختصار فإن علامات النصر والهزيمة تمثلت في غزوة أحد فيما يلي:

أولًا: الأهداف والغايات التي جاؤوا من أجلها: لم تستطع قريش من تحقيق شيء من هذه الأهداف التي خرجت من أجلها وبالتالي لم تحقق نصرًا ولم تصل إلى غاية.

ثانيًا: نهاية المعركة: كانت قريش هى المُنهية للمعركة، فقد انسحبت قريش من أرض المعركة فكانوا أول من فر من أرض المعركة كما فروا من غزوة بدر منهزمين.

ثالثًا: الباقي في أرض المعركة: إن الباقي في أرض المعركة دائمًا هو المنتصر والفار منها هو المنهزم، والذي فر من أرض المعركة هم كفار قريش قبل أن تنتهي، أما الرسول ﷺ فقد بقي في أرض المعركة، وأقام فيها، ودفن الشهداء، وهو آخر مَنْ ذهب من أرض المعركة، بينما فر المشركون.

رابعًا: دليل من قولهم على هزيمتهم: حيث إنهم تلاوموا فيما بينهم؛ لأنهم لم يحققوا انتصارًا حاسمًا، فقد قال المشركون بعضهم لبعض: **(لم تصنعُوا شيئًا، أصبتُم شوكتَهم وحدَّهم، ثم تركتُموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجِعُوا حتى نستأصِل شأفتَهم)**.

خامسًا: قول ابن عباس رضي الله عنه: عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: مَا نُصِرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَوْطِنٍ كَمَا نُصِرَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللهِ عز وجل، إِنَّ اللهَ عز وجل يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: وَالْحِسُّ الْقَتْلُ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران]، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الرُّمَاةَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَهُمْ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ قَالَ: «**احْمُوا ظُهُورَنَا فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ، فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا، فَلَا تَشْرَكُونَا**»...

[مسند أحمد ٤/ ٣٦٨-٣٦٨٩ رقم ٢٦٠٩، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، والمستدرك ٢/ ٣٢٤ كتاب تفسير القرآن رقم ٣١٦٣، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، والمعجم الكبير للطبراني ١٠/ ٣٠١ رقم ١٠٧٣١، والمغازي للواقدي ١/ ٢٩٦-٢٩٧، وتفسير القرطبي ٤/ ١٥٢].

سادسًا: أيهما الأكثر خسارة: المؤرخون يقوِّمون النصر والهزيمة أيضًا بناء على ضوء ما لَحِقَ الجيشين من الخسائر، فمَنْ كانت خسارته أكثر فهو المهزوم، ومن كانت خسارته أقل فهو المنتصر، وقد انجلت المعركة عن قتل سبعين من المسلمين واثنين وعشرين من المشركين.

وبعد أن استعرضنا علامات النصر والهزيمة نلاحظ أن الجيش الإسلامي قد حصل على خمسة أدلة تدل على انتصاره، بينما حصل كفار قريش على دليل واحد فقط، أي بنسبة خمسة إلى واحد، فمن يا ترى يكون المنتصر؟». [غزوة أحد لبامدحج ١٢٨-١٣٢].

٣ ـ العدد والحساب بين بدر وأُحد:

يقول الشيخ أبو زهرة: «وقف أبو سفيان بن حرب الذي كان قائد الشرك مفاخرًا قائلًا: «**يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَإِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ**» زاعمًا أنهما يومان متقابلان تساويا في الخسارة، فخسارة المسلمين يوم أُحد كخسارة المشركين يوم بدر، فهل هما متساويان؟!

العدد والحساب فيهما الحكم والإجابة، لقد كان القتلى من المشركين في بدر سبعين، والأسرى مثلهم، وفروا يومها منهزمين مدحورين، والسيوف الإسلامية تُعمل في أقفيتهم، فهل كانت هذه حال المسلمين: كان القتلى من المسلمين في أُحد سبعين، أربعة من المهاجرين، وأكثر من خمسة وستين من الأنصار، ولم يكن من المسلمين أسير قط، وكان القتلى من المشركين في غزوة أُحد اثنين وعشرين، وأسير هو أبو عزة الجمحي الذي أُسر يوم بدر، وخان العهد الذي أعطاه النبي ﷺ على ألا يُظاهر عليه، فظاهر على المسلمين وجاء مقاتلًا فأُسر، وطلب أن يمن عليه النبي ﷺ لفقره، ولبناته، فقال له النبي ﷺ الذي يجازي بالإحسان، والإساءة بعقابها، قال له: «**لَا أَدَعُكَ تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا، وَتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ، إِنَّ المُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**»، وأُمر به فقُتل.

ولم يكن من المؤمنين أسير، ولم يفروا ولم ينهزموا مدحورين، ولم تُعمل السيوف في أقفيتهم، إذ لم يولوا مدبرين، وإذا كان قد أحيط بهم في الدورة الثانية من أدوار القتال، فقد شقوا طريقهم وارتفعوا عليهم، واختاروا لأنفسهم المكان الملائم، وأخذوا يسلبون نتائج المعركة من أيديهم حتى حسبوها ستفلت من أيديهم، بهذا القتال، وتتبعهم المسلمون في اليوم التالي، وإن كانوا مجروحين لم ينهزموا؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله، فهم ليسوا مع المؤمنين على سواء.

ونتيجة الحساب بالمعادلة تنتج أن عند المسلمين زيادة في الغلب.

وأن الجروح التي أصابت جيش الإسلام لا تُعد هزيمة.

وكما قال صديقنا القائد العظيم اللواء محمود شيت خطاب: إن فَقْد عشرة في المائة من الجيش مع بقائهم ثابتين، ومع أنهم شقوا الطريق إلى النصر لا يُعد هزيمة بحال من الأحوال.

إنما هو جرح، كما قال الله ﷻ: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فما كانت المداولة بين الناس هنا في الانتصار والانهزام، بل كان في القرح الذي مسهم مثله فكانت الهزيمة لهم ابتداء، ولم يستطيعوا أن يُنزلوا بالمسلمين هزيمة مثلها، بل فروا في النتيجة فرارًا».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٢٤-٧٢٥].

٤ ـ نتيجة غزوة أحد:

يقول د/ أبو فارس: «لا يختلف اثنان في أن نسبة الخسائر من القتلى والجرحى في صف المسلمين كانت أكبر مما في صف المشركين، فقد استشهد من المسلمين في هذه الغزوة سبعون، وجُرح ما لا يقل عن ضعفي هذا العدد، وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: **من المنتصر في هذه المعركة؟**

أقول بادئ ذي بدء: إن الناس المعنيين بالأمر في القديم والحديث يختلفون في تقويم المعارك، واعتبار المنتصر فيها والمنهزم، باختلاف وجهات النظر، والمقاييس التي يقيسون بها الأمور.

ففريق يقوِّم النصر والهزيمة في المعارك على ضوء ما لحق الجيشين من الخسائر، فمن كانت خسارته أكثر كان هو المهزوم، ومن كانت خسارته أقل كان هو المنتصر، وهذه النظرة بسيطة وسطحية وغير دقيقة.

وهذه هي نظرة المؤرخين.

وفريق آخر يقوِّم النصر والهزيمة في المعارك على ضوء الأهداف لكل من المتحاربين، ثم مدى تحقيق هذه الأهداف عند كل من الطرفين، فالذي حقق أهدافه هو المنتصر وإن كانت خسارته في القتلى والجرحى أكثر، والذي لم يحقق أهدافه هو المنهزم، وإن كانت الخسارة في صفه، هي الأقل.

فلو كان جيش معين يهدف إلى احتلال بلدة معينة، فحاصرها واقتحمها واحتلها بعد سقوط عدد من القتلى والجرحى أكثر من قتلى المحاصرين وجرحاهم، فإن الجيش المحتل هو المنتصر وإن كانت خسائره أكثر.

ويلوح لنا ـ والله أعلم ـ أن هذه النظرة أدق في التقويم وأكثر عمقًا من الأولى.

وهذه النظرة نظرة العسكريين في العصر الحديث.

وإذا ما طبقنا نظرة الفريق الأول، وقسنا بمقياسه في غزوة أحد نجد أن النصر لم يكن حليف المسلمين بل كان حليف المشركين، لكثرة الخسائر في صف المسلمين، وإلى هذا الرأي ذهب أكثر المؤرخين وكتاب السير.

وإذا ما طبقنا نظرة الفريق الثاني فماذا نجد؟

لقد أدلى بعض المعاصرين من عسكريين ومؤرخين بدلوهم في هذا الشأن، كما رأينا من أقوالهم السابقة، يُضاف إليها رأي الأستاذ المباركفوري [الرحيق المختوم ٣٢٢-٣٢٣]، حيث يرى الأستاذ المباركفوري أن غزوة أحد كانت حربًا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال، من غير أن يفر عن ساحة القتال، ويترك مقره لاحتلال العدو وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة.

كلمة في هذا المقام: مما تقدم يمكن القول بأن الفريقين قد تعادلا في غزوة أحد، إذ كانت الجولة الأولى للمسلمين، فكانت خسائر المشركين من القتلى والجرحى أكثر من خسائر المسلمين، وكانت الجولة الثانية في كفة المشركين، إذ قتلوا وجرحوا من المسلمين أضعاف ما جرح منهم، وإن لم يحققوا أهدافهم من استئصال شأفة المسلمين، وعادوا مسرعين.

كيف يُقال: إن المشركين قد انتصروا وهم لم يدَّعوا ذلك، بل أقروا على أنفسهم بأنهم لم يحققوا أغراضهم، والإقرار أقوى وسائل البينات، وهو حجة قاصرة على المقر.

لقد قال بعض قادة قريش يتلاومون: «**لَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا! أَصَبْتُمْ شَوْكَةَ القَوْمِ ثُمَّ تَرَكْتُمُوهُمْ وَلَمْ تَبْتُرُوهُمْ، وَقَدْ بَقِيَتْ مِنْهُمْ رُؤُوسٌ يَجْمَعُونَ لَكُمْ، فَلا مُحَمَّدًا أَصَبْتُمْ، وَلا الكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، فَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ؟**». [السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٩٧، وينظر: السيرة لابن هشام ٢/ ١٠٢]. [غزوة أُحد لأبي فارس ١٢٣-١٢٨].

٥ ـ حمراء الأسد وشن الحرب الوقائية:

يقول أ/ النجيري: «يشيع لدى كتاب السيرة والمؤرخين أن أُحدًا كانت هزيمة للمسلمين ونصرًا للمكيين القريشيين، ولكنا نرى أن أُحدًا لم تكن هزيمة بحال، ولكنها كانت سجالًا وجولات تبادل فيها الفريقان الكر والفر، وليس أدل على ذلك من أن النبي ﷺ لم يترك أرض المعركة بجيشه كما أن جيشه لم ينكسر، بل إن المشركين هم الذين انسحبوا في النهاية وزالوا عن أرض المعركة، تلقاء مكة، وإن كانوا قد أصابوا من المسلمين كثيرًا من القتلى والجرحى، إلا أن النصر والهزيمة لا يُحدد بعدد القتلى والجرحى، ولكن بتحقيق أهداف المعركة، والمشركون لم يحققوا أهدافهم التي تتلخص في القضاء على الدعوة الإسلامية وأهلها؛ ولذلك سيتلاومون بالطريق إلى مكة في هذه القضية، وسيحاولون الرجوع لتحقيق أهدافهم أو بعضها، ولكن سيظهر في النهاية أن بهم خوفًا كامنًا وترددًا من معاودة الكرة.

وإذا كان النبي ﷺ من عادته أن يقيم بأرض المعركة ثلاثة أيام بعد انتهائها إرهابًا لأعدائه، كما فعل يوم بدر. [البخاري في المغازي (٣٩٧٦)، ومسلم في صفة الجنة والنار (٢٨٧٥)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٥)، والترمذي في السير (١٥٥١)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٩) من حديث أبي طلحة: «أن النبي ﷺ كان إذا ظهر على قوم...» الحديث].

فلم يتيسر له ذلك في أحد فقفل راجعًا بجيشه بلا إبطاء بعد أن أسرع المسلمون بدفن شهدائهم، فقد كانت حكمة النبي ﷺ القائد تتطلع إلى ما بعد الموقعة، وأن قريشًا لن تهدأ بعد هذا الانسحاب، وأن الشيطان يمكن أن يغريهم ببعض الطريق ليعودوا لمطاردة المسلمين إلى المدينة رغبة في تحقيق انتصار ملموس وغنائم وأسرى، وكان النبي ﷺ يرى أن جيشه المكلوم لم يكن على استعداد لخوض هذه الجولة». [البلاء الإلهي للنجيري ٦٤-٦٦].

ويعود فيؤكد على هذا المعنى بقوله: «وعلى ذلك فإنا نعيد التأكيد على أن غزوة أحد لم تكن هزيمة للمسلمين ونصرًا للقريشيين، فلم يتمكن المشركون من أسر أَحد من المسلمين، كذلك لم يحصلوا على غنائم من المعركة، ولم يجترؤوا على دخول المدينة برغم أنها كانت على مرمى أبصارهم، وجيش المسلمين معسكر بشعب أُحد في الناحية الأخرى للمدينة، أي أنه لم يكن يمنعهم من دخول المدينة شيء، وأقسم النبي ﷺ إن دخلوها أن يلاحقهم ليناجزهم فيها، ولكنهم جازوها خوفًا من المسلمين. [ينظر: المغازي للواقدي ١/ ٢٩٨].

ويؤكد خوف المشركين أنهم لم يجترؤوا على الرجوع ومعاودة حرب المسلمين بعد أن قفلوا إلى مكة، وحذَّرهم صفوان بن أمية أن تدول عليهم بعد أن كانت آخر جولة لهم، فهي جولة ويمكن أن يخسروا بعدها.

ومن رحمة الله وتأييده لجنده في هذه الموقعة، وكذلك في بدر قبلها، أن أنزل عليهم النعاس آمنة منه وتسكينًا لقلوبهم، وذلك خارج لنواميس الطبيعة أن ينام الإنسان في مقام الخوف والفزع وسط ساحة القتل والضرب والطعن، ولو لم يكن ذلك في آيات القرآن الكريم لكذبه الناس بعقولهم القاصرة عن المعجزات الإلهية والكرامات الإيمانية، ولكن الله القدير يقول: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعَنْ أَبِي طَلْحَةَ ﷺ قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ. [البخاري في المغازي (٤٠٦٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٠٨)، وأحمد في المسند ٢٦/ ٢٧٧ رقم ١٦٣٥٧ من حديث أبي طلحة ﷺ، لكن روايته في غزوة بدر، وقال محققوه: «كذا وقع عند أحمد، وكذلك هو في ابن حبان: يوم بدر، ووقع عند البخاري وغيره: يوم أحد، قال ابن كثير في البداية ٤/ ٢٨: إن أُحدًا وقع فيها أشياء مما وقع في بدر، فذكر منها حصول النعاس حال التحام الحرب.

قال: وهذا دليل على طمأنينة القلوب بنصر الله وتأييده، وتمام توكلها على خالقها وبارئها، قال الله تعالى في غزوة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١] وقال في غزوة أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[آل عمران: ١٥٤]، يعني المؤمنين الكُمَّل»].

هذا التأييد الإلهي موافق لما في القلوب، فالقلوب التي تطمئن بالله، يرسل عليها الأمن في أشد المواطن، أما القلوب التي أهمتها أنفسها فقد تركها الله للفزع والرهب من الناس.

ومع هذا التأييد لجند الله، يظهر الله ﷻ كيف كانت الخيبة والخسران للمشركين يقول تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾[آل عمران].

ويضع الله ﷻ ميزان الحق لما تمخضت عنه المعركة من نتيجة لم تكن هي هزيمة المؤمنين أو نصر الكافرين بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[آل عمران]». [البلاء الإلهي للنجيري ٧١-٧٤].

٦ ـ عناصر الهزيمة:

يقول م/ أبو راس: «إن للهزيمة عناصر ثلاثة، فلا تكون الهزيمة إلا بتحقق هذه العناصر الثلاثة مجتمعة:

العنصر الأول: تغيير المفاهيم والقيم!

العنصر الثاني: سلب وخسران الأرض!

العنصر الثالث: قتل الجيش!

فهل حدث شيء من هذا لجيش رسول الله ﷺ، لقد دخل المسلمون المعركة وهم يرفعون شعار: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**» تحت شعار: **الله ربنا، محمد ﷺ رسولنا، القرآن دستورنا، الإسلام ديننا**، فهل تغيرت مفاهيم المسلمين بعد انتهاء المعركة.

لا، إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته:

أَنْعَمَتْ، إِنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ، يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، اُعْلُ هُبَلُ!

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُمْ يَا عُمَرُ فَأَجِبْهُ، فَقُلْ: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، لا سَوَاءَ قَتْلانَا فِي الجَنَّةِ، وَقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ**».

وهل تجرأت قريش بعد هذا الذي هُيئ لها أنه انتصار على أن تطأ أرض مدينة رسول الله ﷺ، وهل سلبت منها نواة فضلًا أن تسلب منها قطعة من أرضها!

وهل أفنى جيش الشرك جيش الإيمان عن آخره، لا والله فما زُف إلى الجنة يومها غير سبعين رجلًا من جيش قوامه قرابة السبعمائة مجاهد!». [تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ لأبي راس ٢٠٦].

٧ ـ هذه الغزوة نصر ساحق للرسول ﷺ وللإسلام وهزيمة للمسلمين:

يقول أ/ رضوان: «هي هزيمة للمسلمين؛ لأنها أضاعت نصرًا دنت ثماره من أيديهم، ولما فقدوا فيها من شهداء وهيبة.

وهي انتصار للرسول وللإسلام؛ لأنها أثبتت قوة الإيمان في بث أقصى طاقات الشجاعة عند الشدائد في قلوب المؤمنين.

وأظهرت بطولة الرسول القائد ﷺ الخارقة في صموده في وجه جحافل الأعداء المنهمرين عليه كأمواج البحار يريدون قتله.

ولولا ثبات الرسول القائد ﷺ وصموده في وجه الأعداء لقُضي على المسلمين قضاء مبرمًا.

وهي نصر للرسول القائد ﷺ لنجاحه في تربية رجال أبطال يبذلون حياتهم في رضا وسرور واندفاع دفاعًا عن دينهم الخالد، وفداء لحياة قائدهم ﷺ.

أظهرت هذه المعركة بطولات المسلمين التي لن تعرف الدنيا لها مثيلًا من قبل، وأبرزت عظمة المسلم المسلح بأسلحة الإيمان الباهرة، وأظهرت أن الإسلام الخالد لا يُهزم، وهناك رجال مازجوه بقلوبهم وأرواحهم وأنفسهم وأجسادهم مثل أصحاب محمد ﷺ.

ومن هؤلاء الرجال كانت مواقف خيثمة، وعمرو بن الجموح، وغيرهم رضي الله عنهم.

وكانت هذه البطولة الرائعة لأبي طلحة رضي الله عنه في الدفاع عن الرسول ﷺ.

فهل سمع العالم عن مثل هذه البطولة الفذة؟! ومثل هذا الحب من جندي بطل لقائده العظيم؟! كلا، إنها بطولة الإسلام، وعظمة الإسلام وتربية محمد رسول الإسلام لخير رجال عرفهم العالم، إن هذه البطولة الفذة والمحبة الباهرة تساوي انتصارات جيوش بكاملها.

من هنا قلنا: لقد انتصر الإسلام وانتصر رسول الإسلام في تلك المعركة وخسر المسلمون المعركة.

وهذه المواقف الرائعة للذين ثبتوا حول النبي ﷺ أظهرتها محنة الهزيمة، وما أصاب الرسول القائد ﷺ هو إخبار لأمته بدمائه الطاهرة، التي خطت أعظم صفحات البطولة على وجه التاريخ بأن كل شيء في سبيل الله يهون، وأن صموده أمام جحافل الأعداء بعد فرار المسلمين هو انتصار للإسلام الذي جاء به، وانتصار الإسلام أهم من كسب معركة أو خسارة معركة.

وإن ثبوت القلة معه واستشهادهم في سبيله هو انتصار باهر للإسلام وللرسول المعلم المربي في تلك المعركة.

وهكذا كانت تلك المعركة هزيمة للمسلمين، وانتصارًا في نفس الوقت للإسلام وللرسول ﷺ؛ لأن بقاء الإيمان في الصدور هو أعظم من كل كنوز الدنيا، وبه يتحقق النصر النهائي، فيجب على المسلمين إذا خسروا معركة أن لا ييأسوا من النصر ولا يحزنوا على ما أصابهم من هزيمة وقتل وجراح.

فالمعارك قائمة بين المسلمين وأعدائهم حتى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[آل عمران].

أشارت الآية الكريمة إلى شجاعة الرسول ﷺ، وأن الغم الذي ملأ نفوسهم من ضياع الغنيمة والهزيمة في مقابل الغم الذي أدخلوه على الرسول ﷺ بعصيانهم أوامره.

ونسيانهم تحذير الله لهم من التعلق بعَرض الدنيا الزائل، وترك الإثخان في المشركين الحاقدين على الإسلام، المتربصين به، ولا شك أن الهزيمة المذكرة بتعاليم الله ﷻ وطاعة الرسول ﷺ أفضل ملايين المرات من الانتصار المُنسي عن طاعة الله وطاعة الرسول».

[محمد القائد الأعظم ﷺ لرضوان ٦٥- ٧٤ بتصرف واختصار].

تنبيه: ذكر القاضي عياض في الشفاء: «قال الْقَاضِي عياض أَبُو عَبْدِ الله بْنُ الْمَرَابِطِ [(١)]: مَنْ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُزِمَ يُسْتَتَابُ [(٢)]، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ لِأَنَّهُ تَنَقُّصٌ، إِذْ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي خَاصَّتِهِ إِذْ هُوَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَيَقِينٍ مِنْ عِصْمَتِهِ ﷺ». **[الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ـ للقاضي عياض، تح البجاوي ١/ ٩٤١ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م].**

(١) أبو عبد الله بن المرابط: هو أبو مصعب، ويقال المصعب بن محمد بن خلف بن سعيد بن وهب، توفي بعد ثمانين وأربع مائة، وهو من أجل أئمة المالكية بالمغرب.

(٢) وفي نسيم الرياض ٤/ ٣٨١: «وقضية مذهبنا أنه لا يكفر بذلك، إلا إن قاله على قصد التنقيص؛ لأنه ليس صريحاً فيه؛ لأن الهزيمة قد تكون من الجبلات البشرية، فإن لم يقصد ذلك لم يكفر، بل يعزر التعزير الشديد».